إيتان برونشطاين(*)

تجربة «زوخروت» (ذاكرات) في سياق تحدي تعريف الدولة الذاتي الحصري كدولة لليهود فقط

البداية: اللافتة الناقصة

خطرت لي في وقت ما من منتصف العام ٢٠٠١ في نهاية جولة قمت بها في "متنزه كندا" فكرة نصب اللافتة الناقصة التي سيكتب عليها بالعبرية والعربية: مقبرة عمواس. تشكّل هذه الفكرة البسيطة؛ أي اللافتة التي تظهر ما تم أخفاؤه في المشهد الإسرائيلي خلاصة حراك "ذاكرات". ويتجلى في هذا الفعل الدمج بين الحسي والسياسي لأن اللافتة تشكّل غرضًا ماديا ذا هيئة وشكل، وما هو مكتوب عليها يستأنف على، ويشكك في، الهوية الإسرائيلية الكولونيالية.

قمت بتلك الجولة بصفتي مرشدًا فيها عندما كنت أعمل في «مدرسة السلام، نافيه شالوم/ واحة السلام»، حيث كنت أنظم جولات لمجموعات يهودية من الشباب الإسرائيليين في «متنزه كندا» المجاور للمدرسة. كنت أُطلِع هذه المجموعات كيف تحول المشهد إلى إسرائيلي عبر إخفاء حقيقة أن مفترق اللطرون وكذلك المتنزه كله يقعان خلف الخط الأخضر. ومن الممكن رؤية آثار القريتين عمواس ويالو بوضوح في أرجاء المتنزه واللتين قامت إسرائيل بهدمهما خلال حرب العام ١٩٦٧، أسوة بقرية بيت نوبا المجاورة. قام الصندوق القومي اليهودي «الكاكال»، والذي أنشأ المتنزه في مطلع السبعينيات منفقا ملايين الدولارات الكندية، بنصب عدد من اللافتات فيه تحمل شرحًا عن الحقب التاريخية المختلفة للمكان، ظهرت عليها اسماء الرومانيين والعثمانيين والمماليك والبيزنطيين وحتى اليهود في "موقعة عمواس"، في

(*) مؤسس جمعية «ذاكرات»

«ذاكرات»: لافتة لإقرث.

حين أنه ليس من باب الصدفة أن يختفي تمامًا من اللافتة تاريخ آلاف الفلسطينيين الذي عاشوا في المكان لغاية طردهم منه في العام ١٩٦٧ .

أما الجولة إياها فقد كانت معدّة لطلاب الصف العاشر في المدرسة القطرية في «جفعات برينر» وكانت الجولة تندرج فيما يمكن اعتباره «ثنائية السرد». وبعد أن قمت بإعطاء شرح عام عن المكان، استهل زكريا السنباطي (فلسطيني من بيت سيرا المجاورة) الكلام. كان زكريا في التاسعة من عمره أثناء الحرب وقد شهد خراب البيوت في يالو وعمواس من مسافة ليست بعيدة، ثم جال بعد مضي عدة أيام بين أنقاض البيوت حيث رأى عددًا من الجثث المدفونة تحتها.

ثم أردف ألون جلعاد – وهو مدرس المدنيات لهؤلاء الطلاب– الحديث بعده وكان قد اشترك كجندي عام ١٩٦٧ في هدم هذه القرى. استهل جلعاد حديثه بما مفاده: "إن كل ما قاله زكريا كان صحيحًا إلا ما يتعلق بالجثث المدفونة تحت أنقاض البيوت، لم تقع حرب هنا وإنما طرد للمدنيين. كانت تلك أحلك الساعات في حياتي ولهذا السبب فإنني لا أزور "متنزه كندا" مطلقًا، واليوم هي المرة الأولى التي أعود فيها إلى هنا، ولم أقم بذلك إلا لكي أحدثكم عما جرى هنا؛ عن أمر ما كان يجب أن يحدث».

تشكل قصص الشاهديْن هذه بالنسبة لي مثارًا للتفكير والاستغراب، وقد فضلت عدم ذكر قضية الجثث خلال عشرات الجولات في المكان والتي كنت المرشد فيها، وذلك لأنه صعب علي تقبل فكرة وقوع أمر كهذا. فقط بعد مضي عدة سنوات وبعد أن وصلت إلينا شهادة رصينة[1] جدًا عن جثث مدفونة تحت بيوت عمواس، قمت بإضافة هذا التفصيل إلى الجولة التي أقوم بها.

لقد وجدت نفسي أسوة بالطلاب المشاركين في ضائقة ليست يسيرة على إثر المعلومات التي تلقيناها في الجولة، إذ لم يكن لدي وفقاً للتوجه السائد في "مدرسة السلام"، مطرحًا أوجه إليه مشاعر الذنب والعار. فهمت أنني جزء من كل هذا وأنه ليس بمقدوري سوى تكرار هذه المعلومة مرة تلو الأخرى لكي يعرفها الآخرون. آه، نعم، يُضاف إلى ذلك التعبير عن التضامن مع الفلسطينيين. إذن ما يكمن في فكرة نصبي للافتة هو قدرتي

عندما اندلعت الانتفاضة الأولى أدركت عدم مقدرتي على قمع انتفاضة شعبية لشعب ما فتئت أدعم استقلاله ضمن حدود المناطق المحتلة عام ١٩٦٧. رفضت وسُجنت إثر ذلك مرتين إضافيتين، ومع ذلك فقد كنت ما أزال داعمًا للخدمة العسكرية طالما لا تلقي على عاتقي مهام تتنافى مع ما يسمح به ضميري. إن خدمتي في الجيش ليست مدعاة للفخر بالنسبة لي، بينما أشعر بفخر أعظم حيال رفض ولديّ الكبيرين الخدمة العسكرية. ومؤخراً بدأت حتى ابنتي، الأصعب مراسًا في البيت بما يخص قضية الجيش، بإعادة النظر في الموضوع، وبفحص ما يتوجب عليها فعله.

على أن أخلّص نفسي من هذا الموقف الإشكالي. وهكذا تحولت من موصوم يعاني جراء ذلك من الشعور بالذب، لكنه خامل، إلى نشط يطالب بتغيير الواقع أو بالأحرى تغيير الخطاب الذي يفسر هذا الواقع.

أرّقتني الفكرة ودفعتني للحديث عنها لعدة أيام مع كل من قابلته، وقد أخذت بتوسيعها من قرى اللطرون الثلاث إلى مئات القرى التي هدمتها إسرائيل في النكبة. وكان من بين هؤلاء الذين قابلتهم، صديق من فترة الخدمة العسكرية، الذي اعتاد النشر في جريدة "الكيبوتس". فتحمس للفكرة وكتب فيها مقالة من صفحتين متقابلتين تضمنت الكثير من الكلمات المستفزة، فأثارت –كما كان متوقعًا– ردود فعل غاضبة من طرف الكثير من أبناء "الكيبوتسات". كما قام توم سيغيف بقراءة هذه المقالة وأفرد مقطعًا عن فكرتي في زاويته الأسبوعية "مراسل أجنبي"؛ كل هذا قبل أن ننصب لافتة واحدة. لقد فهمت من ردود الفعل الكثيرة أن هناك طاقة ثورية كامنة في فكرة اللافتة وأن خطوتي القادمة تحتم عليّ اللقاء مع كل من يمكنه الدفع بهذه الفكرة إلى الأمام.

شمل سيل لقاءاتي العديدة لقاءين أعتبرهما الأهم، وهما مع أعضاء "لجنة المهجرين" ومركز "بديل" في بيت لحم، وكلاهما يعتبر من التنظيمات المركزية في قضية اللاجئين الفلسطينيين. تمت عدة لقاءات مع "لجنة المهجرين" بخصوص فكرتنا بنصب لافتات بالعبرية والعربية للإشارة للقرى الفلسطينية الواقعة داخل نطاق دولة إسرائيل. وقد شابت الشبهات رد فعلهم في البداية، فقد فاجأهم أن يأتي إسرائيليون على حين غرة باقتراح غريب ومتطرف كهذا؛ ولا يخفى علينا أن تلك الفترة كانت اللاحقة لأحداث "أكتوبر ٢٠٠٠" وهي الفترة التي بلغت الريبة لدى الفلسطينيين مواطني دولة إسرائيل تجاه اليهود أقصاها. كل هذا مبرر طبعًا؛ لقد كنا مدركين ذلك بحكم اشتراكنا المكثف في لقاءات بين اليهود والعرب وعليه فقد توفرت لدينا الأدوات لفهم هذه الحالة غير البسيطة. تكللت المحادثات بالنجاح وأسفرت عن أنه تم في مسيرة العودة عام ٢٠٠٢ المقامة في نفس يوم الاستقلال، والتي شاركت فيها "ذاكرات" لأول مرة؛ رفع لافتات أسماء القرى الفلسطينية المهدومة في العام ١٩٤٨ بالعبرية أيضًا. أما اللقاء مع "بديل" فكان لسبب ما أسهل من اللقاء مع "لجنة المهجرين". ذهبت إلى بيت لحم مع نورما موسي أقرب الزملاء إليّ في إقامة بديل، حيث التقينا بمحمد جرادات وإنجريد جاسنر؛ الزوجان اللذان أقاما "بديل" سوية، فكان أن انسجمنا على الفور الأمر الذي منحنا دفعة قوية لإقامة المؤسسة. وعندما خطرت ببالي لاحقاً فكرة أن يكون شعار "ذاكرات" على شاكلة ثقب المفتاح، كانت إنجريد الأولى التي قمت باستشارتها بهذا الصدد.

شراكة يهودية عربية كشرط لتحقيق الإمكانية

كما أسلفت سابقًا فإن "زوخروت" لم تنشأ نتيجة لنقاشات إستراتيجية، أدركنا في نهايتها أن الوقت قد حان لليهود الإسرائيليين لأن يعترفوا بالنكبة وبحق اللاجئين الفلسطينيين في العودة. لقد انبثقت الفكرة الأولية من الحدس الذي بالإمكان إدراجه طبعاً ضمن السياق السياسي والتاريخي الخاص بتلك الفترة، فبالنسبة لي شخصياً وللكثير من أصدقائي في اليسار الإسرائيلي، شكلت أحداث "أكتوبر ٢٠٠٠" نقطة انكسار بت أدرك اليوم أنها كانت الانكسار الأخير بيني وبين الصهيونية.

يشكل الحيّز الجغرافي الفعلي للبلاد المساحة المركزية لفعاليات "ذاكرات" منذ تأسست حيث باتت الجولات التي تقيمها إلى أنقاض القرى الفلسطينية المهجرة إبان النكبة العلامة المميزة التي تشتهر بها المؤسسة. لقد أضفت مئات اللافتات الصفراء ذات الكتابة باللون الأخضر بالعبرية والعربية التي نصبت في هذه الجولات، نقاطا جديدة قديمة حتى وإن تم نزع غالبيتها بعد نصبها بفترة وجيزة. لقد تم تخليد هذه الخطوة بتصويرها وحفظها في الأرشيف المفتوح الذي يشكله موقع الإنترنت التابع لـ "ذاكرات".

وللأسف فقد كانت ميول غالبية أصدقائي الآخرين تتجه نحو المركز انطلاقًا من "خيبة أملهم من العرب الذين حقاً قد خانوهم في تلك الأحداث".

كما أني أستطيع اليوم إدراج "أكتوبر ٢٠٠٠" ضمن تسلسل تطور وعيي السياسي الشخصي، فقد تجندت للجيش عندما كنت في الثامنة عشرة دون أن أشكك في ذلك. إلا أني قمت فور انتهاء خدمتي العسكرية بالإشارة لأول مرة بأن "هناك حد/ يش جفول" ورفضت أن أخدم حينما تم استدعائي لتنفيذ فترة خدمتي الاحتياطية الأولى في لبنان. سجنت لعدة أسابيع في سجن في عتليت حيث أمضيت وقتي في ما يشبه حلقة دراسية مكثفة حول قضية رفض الخدمة. إلا أن رفضي كان انتقائيا حيث لم يضع خدمتي في الجيش الإسرائيلي موضع شك، بل على العكس فقد أخبرت قائدي بأني على استعداد للخدمة إذا ما تم إرسالي إلى مكان آخر.

عندما اندلعت الانتفاضة الأولى أدركت عدم مقدرتي على قمع انتفاضة شعبية لشعب ما فتئت أدعم استقلاله ضمن حدود المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ . رفضت وسُجنت إثر ذلك مرتين إضافيتين، ومع ذلك فقد كنت ما أزال داعمًا للخدمة العسكرية طالما لا تلقي على عاتقي مهام تتنافى مع ما يسمح به ضميري. إن خدمتي في الجيش ليست مدعاة للفخر بالنسبة لي، بينما أشعر بفخر أعظم حيال رفض ولديّ الكبيرين الخدمة العسكرية. ومؤخراً بدأت حتى ابنتي، الأصعب مراسًا في البيت بما يخص قضية الجيش، بإعادة النظر في الموضوع، وبفحص ما يتوجب عليها فعله من أجل تحمل المسؤولية وعدم الخدمة في الجيش.

إذن فقد وُلدت "ذاكرات" بعد مضي أشهر معدودة على أحداث "أكتوبر ٢٠٠٠" العنيفة والتي عايشتها على جلدي في المظاهرات التي أقيمت على التلة المشرفة على شارع رقم ٦٥ في أم الفحم. إلا أنه وعقب انضمامي للمتظاهرين، نُصحت بترك المكان نظرًا لأن النداءات والعنف الدائر كانا مخيفين. سمعت في طريقي إلى البيت عن مقتل متظاهريْن نتيجة سياسة "باراك" القاضية بفتح الشوارع بكل ثمن؛ أغلقت قوات الأمن الشارع تمامًا عقب القتل.

إن ما أدركته عقب هذا القتل أن كل نضال من أجل المساواة بين اليهود والعرب ضمن إطار إسرائيل كدولة يهودية محكوم بالفشل، ولا يعود السبب في ذلك لقلة نزاهة المناضلين أو لأن النظام غير معني بتطويره. إن المساواة بين اليهود والعرب بتعريفها هي شيء يتجاوز إمكانيات إسرائيل وخارج عن نطاق تعريفها لذاتها. بكلمات أخرى، إن الصهيونية في تجليها التاريخي كإسرائيل ألغت كل إمكانية لحياة مشتركة بمساواة كاملة مع سكان البلاد الفلسطينيين. عليه فإن كل من يطمح بالحفاظ على أمل ما بالحياة بسلام ومساواة مدنية مناهضة للفصل بين العرب واليهود في البلاد، يتوجب عليه تحدي تعريف الدولة الذاتي الحصري كدولة لليهود فقط؛ أي أن اليهود فقط يستطيعون أن يكونوا مواطنين كاملين فيها.

اللاجئون الفلسطينيون في الحيز الفعلي والافتراضي الذي تخلقه «ذاكرات»

يبدأ التحدي باعتراف اليهود الإسرائيليين بمسؤوليتهم في النكبة، حيث يشتق من هذا الاعتراف إنهاء منع عودة اللاجئين الفلسطينيين، والحراك الناجع للدفع من أجل العودة. إلا أن الاعتراف بالنكبة، وعلى الرغم من كونها بالأساس خطوة يقدم عليها إسرائيليون سوية مع إسرائيليين آخرين، فإنه لا يمكن أن يحصل دون الفلسطينيين؛ حيث يخزن الفلسطينيون النكبة في هويتهم، وذاكرتهم الجسدية وتاريخهم الجمعي، عليه فإن أي

لقد فهم الإسرائيليون بحكم كونهم تلاميذ الاستعمار البريطاني، بأن الخرائط تحدد الواقع أكثر من المشهد الفعلي القائم الذي من المفروض لهذه الخرائط تمثيله. إذن فإن جولة «ذاكرات» تعيد إنتاج الحيز المهدوم وتحييه ما يجعلها خطوة متعارضة مع المنطق الحيزي الإسرائيلي.

انشغال بها دون الفلسطينيين سيعيد إنتاج الفصل الذي تنتجه وتعززه الصهيونية الإسرائيلية.

تشكل "الرواية الفلسطينية" حجر الزاوية في أغلب فعاليات "ذاكرات" المركزية ولا يعود ذلك لكون الشراكة اليهودية العربية تشكل هدفًا بحد ذاته وإنما لأنه لا غنى عن هذه الشراكة؛ إنها شرط إمكانيتنا، يهودًا وعربًا للاعتراف بالنكبة بل وتسبق كل فعالية كهذه وإن لم تكن واحدًا من أهدافها. إن شهادات الفلسطينيين ومعرفتهم وذاكرتهم للأماكن المهدمة تشكل أساس فهم النكبة لدى الإسرائيليين. علاوة على ذلك فنحن نقرأ مؤخراً في "ذاكرات" شهادات عن النكبة يدلي بها مقاتلو وحدة "البلماح"؛ إلا أن ما تفعله هذه الشهادات هو فقط التأكيد على المعلومات الأساسية عن النكبة كما رواها الفلسطينيون، حيث أنه ليس بإمكان شهادات المقاتلين الصهاينة أن تكون مرجعا حصريا ومعتمدا للمعرفة في كل ما يتعلق بالنكبة.

يشكل الحيّز الجغرافي الفعلي للبلاد المساحة المركزية لفعاليات "ذاكرات" منذ تأسست حيث باتت الجولات التي تقيمها إلى أنقاض القرى الفلسطينية المهجرة إبان النكبة العلامة المميزة التي تشتهر بها المؤسسة. لقد أضفت مئات اللافتات الصفراء ذات الكتابة باللون الأخضر بالعبرية والعربية التي نصبت في هذه الجولات، نقاطا جديدة قديمة حتى وإن تم نزع غالبيتها بعد نصبها بفترة وجيزة. لقد تم تخليد هذه الخطوة بتصويرها وحفظها في الأرشيف المفتوح الذي يشكله موقع الإنترنت التابع لـ "ذاكرات". وفي غالبية الجولات يتجاوز عدد الفلسطينيين المشاركين عدد المشاركين اليهود، رغم أن جمهور الهدف الذي تعنى به المؤسسة هو الإسرائيليون اليهود. فالفلسطينيون في البلاد يهتمون بشكل "طبيعي" بالنكبة، حيث أنهم يدرسون في جهاز التربية الإسرائيلي ما يجعل معرفتهم عن النكبة مقتصرة على ما يرد على مسامعهم في البيت.

تعيد جولة "ذاكرات" الكيان الفلسطيني المهدم لحيز البلاد التي تم محوه منها وأخفيت آثاره. وفقًا لخارطة النكبة باللغة العبرية التي كانت "ذاكرات" قد أصدرتها بمناسبة عيد الاستقلال الـ٦٥. قامت إسرائيل في العام ١٩٤٨ بهدم ٦٧٨ من أماكن عيش الفلسطينيين. إن الاحتلال الفعلي للبلاد، كما علمنا من ميرون بنفينستي، كان فاتحة للاحتلال الحقيقي المتمثل بخطاب "الخارطة العبرية" التي أعدها بن غوريون[٢]. غطت الأرض وخرائطها أسماء عبرية ومقابل هذا لم يبق منذ مطلع الستينيات أي ذكر تقريبًا للقرى الفلسطينية المهدومة حتى وإن لم يتم هدمها فعليًا بالكامل. أما من آهارون شاي فقد تعلمنا أن هدم مئات القرى لم يتم حتى الستينيات مشيراً إلى أن السبب المركزي لذلك هو أن هذه القرى تُصعّب مهمة الإلمام بالبلاد لغيابها عن الخرائط[٣]؛ بكلمات أخرى، لقد تم هدم المباني من أجل التسوية بين الخرائط (والمنطقة كذلك، حيث كانت كلمة «يسوّي» سائدة بين الهدامين الذين ذكرناهم سابقًا) وبين المشهد الفعلي. لقد فهم الإسرائيليون بحكم كونهم تلاميذ الاستعمار البريطاني، بأن الخرائط تحدد الواقع أكثر من المشهد الفعلي القائم الذي من المفروض لهذه الخرائط تمثيله. إذن فإن جولة «ذاكرات» تعيد إنتاج الحيز المهدوم وتحييه ما يجعلها خطوة متعارضة مع المنطق الحيزي الإسرائيلي.

تحدث إعادة الإنتاج المذكورة أعلاه خلال الجولة نفسها، عليه يمكننا اعتبارها حدثًا يتحدى التسلسل الزمني للتاريخ الإسرائيلي. ما زلت أتذكر الهلع الذي أصابني عندما قرأت الكتاب "TAZ" (إصدار "رزلينج"، Temporary Autonomous Zone)، حيث شعرت بأن "حكيم بيه" قد كتبه عن إحدى جولات "ذاكرات". ذلك لأن هذه الجولة تعمل على إنتاج حيز مستقل مؤقت يتم به تعليق الزمن التاريخي الإسرائيلي لصالح تسلسل زمني منافس. ينسحب زمن البلاد الخالية و"بلدة المشاغبين" وفقاً للرواية الإسرائيلية المهيمنة، وتحل محله القصص الشخصية المنبعثة من ذكريات الرجال والنساء الذين عاشوا فيه وطردوا

«ذاكرات» تستعيد مدرسة كويكات.

منه بالقوة. بالإضافة إلى ذلك، ينتج هذا التشويش التاريخي ولو لحظيًا علاقات قوة جديدة ويُخيل أحيانًا أنها علاقات معكوسة: الإسرائيليون اليهود يصغون (وهو بالأمر النادر ولكن ممكن الحصول) ويتعلمون من الفلسطينيين الذين يتحولون لحظيًا لأسياد البلاد، أو على الأقل لمواطنيها الشرعيين. تمثل هذه اللحظات بالنسبة للكثير من اليهود لحظات صعبة ولكنها دائمًا ما تكون ثورية بالنسبة لهم؛ حيث يتزعزع لديهم كل ما تعلموه عن تاريخ الـ٤٨ حين يتبين لهم أن النكبة كانت مشروع طرد ممنهجا وليس "نتيجة للحرب".

إلا أن تجربة التجوال في "المكان" وعلى الرغم من أهميتها وقوتها، فإنها مقتصرة على زمن حدوثها. لقد قامت "ذاكرات" على غرار الصهيونية وربما أيضًا على غرار ثمرة بطنها (الفاسدة؟)، بتحويل التوثيق والحيز الافتراضي لمناطق تنشط فيها "ذاكرات" بطرق أكثر فاعلية. لقد تحول التواجد الافتراضي للفلسطينيين في الحيز الإسرائيلي وباللغة العبرية لركيزة أساسية في حراك "ذاكرات". عليه فحتى وإن كانت الجولات المذكورة تتم لمرة واحدة فقط إلا أن توثيقها يعمل على تخليدها ويسهل الوصول إليها لكل من يستعمل الإنترنيت سواء بالصدفة أم عن قصد. نحن اليوم بصدد الحديث عن ٥٥ جولة تم إصدار كتيب مرافق لها باللغتين العبرية والعربية، ما يعني وجود عدد هائل من المواد الافتراضية في الأرشيف الموجود على الشبكة.

بالإضافة إلى ذلك، تستحضر "ذاكرات" اللاجئين الفلسطينيين عن طريق نشاطاتها المختلفة بسبل عدة سأطرح مثلين اثنتين منها. سافر قبل عدة سنوات مصور فرنسي اسمه "تيري برسيلون" إلى لبنان وصوّر لاجئين فلسطينيين من قرية راس الأحمر والمقيمين في مخيم عين الحلوة. جلب المصور هذه الصور إلينا ثم قمنا بطباعتها بحجم جسد إنسان وألصقنا خمسا منها على لوحات "كابا"، ثم قمنا بأخذها إلى بلدة "كيرم بن زمورة" المقامة على أنقاض بيوت القرية الفلسطينية التي ما زال بعضها يستعمل لغاية الآن. قمنا بنصب الصور في المدرسة الابتدائية التي درس فيها هؤلاء اللاجئون، ثم وقفنا بينها فيما قام "تيري" بتخليد هذه الوضعية. كان أحد اللاجئين قد توفاه الله قبل شهر من وضعنا لصورته بجانب أنقاض القبر المكسور في مقبرة راس الأحمر؛ المكان الذي كان على الأغلب يرغب بأن يدفن فيه. عرض "تيري" الصور التي التقطها عن نصب الصورة الكبيرة في عين الحلوة، الأمر الذي أثار حماسًا بالغًا.

لقد رفعنا نحن نشطاء "ذاكرات" اليهود هذه الصور الكبيرة في تل أبيب أيضًا خلال مسيرة حقوق الإنسان التي نظمتها "جمعية حقوق المواطن". اشترك هؤلاء اللاجئون الفلسطينيون، أو بالأحرى تمثيلهم الصوري، في مسيرة في قلب المدينة العبرية الأولى؛ وقد قمنا ببث المسيرة ومشهد الصور الكبيرة بالبث الحي عبر الهاتف النقال و"السكايب" إلى اللاجئين الفلسطينيين الذين كان يتابعون ما يجري من بيت لحم وبيروت، ثم قاموا لاحقًا بإرسال ردود أفعالهم إلينا. قامت مصورة محترفة بتصوير هذا النشاط، فقمنا بوضع صورها الرائعة ومعها ردود اللاجئين المتحمسة التي كتبوها لنا، في موقع أرشيف "ذاكرات" الموجود على الشبكة.

يمثل هذان النشاطان المطلب بوجود حق يكفل لك بأن تكون ذا حق (The right to have rights) وفق "حنة آرنديت"، حيث لا يعتبر هؤلاء اللاجئون الفلسطينيون أصحاب حق في البلاد التي ولدوا فيها. أضف إلى ذلك، أن النظام القائم يرى بهم خساسة البلاد، وما أفرزته كملخلفات فائضة، بل يحظر التعامل معه، ما يوجب إبقاءه في الخارج بعيداً عن كل مرمى النظر. عليه فهم يفتقدون لوضعية تخولهم المطالبة بحقوقهم في إسرائيل، ومن يمكنه أن يقوم بذلك بدلًا عنهم هم أصحاب الحقوق أنفسهم الذين يحملون تمثيلهم بأجسادهم. ولكن نظرًا لأن اللاجئين الفلسطينيين ليسوا مواطنين في إسرائيل وليس بإمكانهم أن

يكونوا كذلك، فإن مطالبهم لا تتمثل بأن يُشملوا في الكيان المدني الإسرائيلي، بل تتمثل بأن يصبحوا مواطنين بمفهوم العمال، الذين يقومون بفعل مدني يعنى به العيش مع وبين رجال ونساء آخرين، وليس (بالضرورة) في إطار "دولة قومية."

يُخرج نشطاء "ذاكرات" اليهود أنفسهم عندما يقومون بفعل كهذا من إطار مواطنتهم الخاملة في الدولة، ويفضلون عوضًا عنها المواطنة العالمية لأفراد يطالبون بتحدي وضعيتهم كذوات تابعة للدولة وإنتاج وضعيتهم كذوات خارجة عنها. تشمل هذه المواطنة الجديدة سكان الأرض الفلسطينيين الذين تشكل عودتهم إليها شرطًا ضروريًا بالنسبة لليهود أيضًا من أجل أن يصبحوا مواطنين كاملين؛ ليس كمواطني دولة اليهود القومية ولا كمحتلين.

يدّعي "إنجين ف. أيسين" (Engin F. Isin) إن "المواطنة بمعناها كذاتية سياسية فاعلة تحول انتباهنا من المفاهيم الثابتة التي فهمنا أو ورثنا المواطنة بمساعدتها، إلى نضالات تتحدى هذه المفاهيم" (ترجمة المؤلف).[٤] إن المواطنة الفعالة التي تمثلها "ذاكرات" تتحدى المفاهيم التي تحدد المواطنة في الدولة اليهودية وتقترح تغييرها بشكل جذري. إلا أنني أعتقد أن التغيير الثوري الحقيقي في عمل "ذاكرات" يتمثل تحديدًا في لغة حراكها السياسي وليس في مضمونها؛ فاللغة الخاصة التي طورتها "ذاكرات" هي التي تقف وراء إنجازاتها وتفسر التحديات التي تقوم بمواجهتها.

نجاح (والثمن المدفوع) «ذاكرات»

إذا كنت أتردد قبل بضع سنين في قول شيء حول ما إذا كانت «ذاكرات» أحدثت تغييرا في إسرائيل فيما يتعلق بالنكبة، فإنني قادر اليوم على القول بصوت عالٍ إن الرد على هذا التساؤل هو بالإيجاب. وهناك الكثير من الإشارات وردود الأفعال التي تشهد على ذلك؛ قد يكون أكثرها شهرة قانون النكبة الذي سن حينما كان نشاط «ذاكرات» في قمته، وذلك كرد واضح على التحدي الذي وضعته. أضف إلى ذلك تحذيرات الكثير من الشخصيات اليمينية من فعالية «ذاكرات»: «هن مثيرات للاستغراب ولكنهن بالتأكيد خطيرات»، كما قالت إحدى هذه الشخصيات الهائجة بشكل خاص.[٥] لقد كتب الكثيرون عن «ذاكرات»، ولكني أود الإشارة لتحليل مثير كتبه د.»أودي لابل» وهو أخصائي نفسي سياسي والذي يفسر نجاح «ذاكرات» بالتالي: «هذه ليست حركة احتجاج على الرغم من أنها تحمل سمات احتجاجية. أما إستراتيجيتها خلافًا لكل مؤسسات اليسار الأخرى، فهي صياغة الخطاب واللاوعي الإسرائيليّن، وتصميم اللغة الإسرائيلية والملعب الأكاديمي والبحثي والثقافي والفكري. إن إستراتيجيتها هي التأثير بصورة غير مباشرة، ولكن تأثيرا فعليًا أكبر بكثير.»[٦]

أما "سيرج موسكوفيتش" الأخصائي النفسي الاجتماعي وهو أكثر شهرة من سابقه، فقد أظهر أن للأقلية قدرة تأثير على المدى البعيد تفوق بدرجات قدرة الأغلبية. عندما تكون الأقلية ذات مواقف متماسكة، وناشطة على الدوام (وأضيف) خلاقة ومتعددة السبل، تعتمد على أبحاث وتعمل على توثيق فعالياتها؛ عندها تكون فعاليتها كبيرة نسبيًا نسبة لمواردها الضئيلة. كما يبدو فإن "موسكوفيتش" يقوم بتقديم الشرح العلمي الأفضل لنجاح "ذاكرات" في التأثير على خطاب النكبة وحق العودة في إسرائيل. إن التعريف الجديد الذي طرحته "أريئيلا أزولاي" لمصطلح ثورة يمكننا من حسم بأن ما تقوم به "ذاكرات" وما تزال لا يقل عن كونه ثورة،[٧] حيث تتيح لنا إعادة النظر بالعلاقات بين المحكومين من قبل دولة إسرائيل وبين الحكم وذلك من أجل تغييره من الأساس.

عندما أنشأت «ذاكرات» وقمت بالبحث في «جوجل» عن الكلمة نكبة [«نخبه» بالأحرف العبرية، والتي تعني فعل إطفاء الأضواء (المترجمة)] كانت نتائج البحث تظهر فعل إطفاء الأضواء وتصريفاته المختلفة؛ أما اليوم فالبحث عن الكلمة في الإنترنيت يوصلك إلى عدد لا متناه من النتائج المتعلقة بمأساة العام ١٩٤٨ . ولئن لا يزال غالبية الإسرائيليين لا يعرفون الكثير عن النكبة إلا أنهم يدركون أن هذا حدث مهم من شأنه زعزعة الرواية الإسرائيلية، ولذلك فإن الغالبية ما تزال ترد على الموضوع بعدائية وحتى بعنف (كلامي لغاية الآن). إلا أنه بات واضحًا أنه لا يمكن للرأي العام الإسرائيلي أن يتغاضى عن النكبة وعن الناطقين المركزيين باسمها، ألا وهم «ذاكرات» والمثال الأوضح على ذلك هو جهود حركة «إم ترتسو» والـ»إن جي أو مونيتور» (NGO MONITOR) في التقصي الدؤوب والرد سراً وعلانية

على نشاطات هذه المؤسسة الصغيرة نسبيًا.

لا يخلو النجاح من ثمن أيضًا، حيث أن مؤسسات إسرائيلية وفلسطينية مختلفة لا تنظر إلى إنجازات "ذاكرات" بعين الرضى. إن حساسية هذا الموضوع بطبيعة الحال تمنع التحدث عنه بصراحة، لكن أحيانًا يفاجئك أن تجد أن حتى شركاء إستراتيجيين لا يحبون هذا النجاح. مع ذلك لا شك أن الخطر الحقيقي الذي يهدد استمرارية عمل "ذاكرات" ينتج عن دوائر اليمين السياسي وحكومة إسرائيل الذين قد يقومون بسن قوانين جائرة أكثر مما هي عليه والتي من شأنها تهديد استمرارية المشروع.

[مترجم عن العبرية. ترجمة حنين نعامنة]

الهوامش

١ جاردي، تومر: محرر؛ إصدار "ذاكرات"، ٢٠١٠، ص. ٤٧–٥٣. http:// www.zochrot.org/sites/default/files/sedek__5.pdf

٢ المشهد المقدس: التاريخ المدفون للأرض المقدسة ١٩٤٨–١٩٩٨. بيركلي: منشورات جامعة كاليفورنا، ٢٠٠٠.

٣ "كاتدرا" ١٠٥، ٢٠٠٣، ١٥١–١٧٠. http://www.ybz.org. il/__Uploads/dbsAttachedFiles/Article__105.6.pdf

٤ إنجين ف. أيسين، مواطنة في التيار: صورة المواطن النشط. في الذاتية، ٢٠٠٩، ٣٦٧–٣٨٨.

5 http://www.inn.co.il/News/News.aspx/260810

٦ المشاهد، ٢٠٠٨، يشاي فريدمان.

٧ الثورة لغة/ محاضرة لأرييئلا أزولاي، ٢٠١٢. http://www.youtube. com/watch?v=mKviAvT__5iQ